المحور الأول: علاقة الحكام العثمانيون في الجزائر بالقوى الاجتماعية المتنفذة في المدن والريف

المحاضرة الأولى: جماعة الأتراك والكراغلة والخضر (1518_1830)

مدخل: السلطة والمجتمع

تمهيد:

إن المتأمل في التركيبة الاجتماعية والعرقية للمجتمع الجزائري في العصر الحديث، يجد ان هذا المجتمع يتألف من عناصر عرقية وفئات اجتماعية متعددة وأحيانا متباينة، وانطلاقا من هذا المعطى يمكننا تصنيف المجتمع الجزائري في العهد العثماني(1518_1830) إلى عدة فئات ومجموعات، لعل أبرزها التصنيف على أساس الوضع الاجتماعي والاقتصادي، الذي يقسم المجتمع إلى سكان مدن تتراوح نسبتهم ما بين 5و15% من المجتمع، وهم فئة متنفذة مؤثرة سياسيا واقتصاديا، أما المجموعة الثانية والتي تمثل الاغلبية 90_95%من السكان فهم سكان الريف، (جون، وولف: الجزائر وأوروبا، تر،أبو القاسم سعد الله، الجزائر1986، ص159-160-)

_ charl A ;Julien :Histoire de l'Algerie.Contemporaine ,la conquête et les débuts de la colonisation1827_1871,O,U,F,1964,P,7.

_أرزقي شويتام،المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519_1830م،رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر،2005_2006،ص،52.

تتميز هذه المجموعات بتعدد فئاتها، التي تختلف أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية وحتى في درجة تأثيرها في السلطة السياسية. بالرغم من هذا التباين في المجموعات والفيئات الاجتماعية، إلا أنّ المجتمع الجزائري لم يعرف الطبقية الاجتماعية وفق المفاهيم الغربية الرأسمالية او الاشتراكية.

1_ السلطة العثمانية في الجزائر

أ_مفهوم السلطة: لغة هي من الفعل الثلاثي "سُلط"، يعني الشدّة. والسليط يعني الشديد، أمّا التسليط فيعني التغليب، واطلاق، القهر والقدرة "الفيروز آبادي"، 1413هـ، 867.

_ أمّا اصطلاحا: فإنّ هذا المفهوم يختلف بحسب طبيعة المجال الّذي تتناوله، فهناك سلطة دينية، اجتماعية، أخلاقية، اقتصادية أو سياسية.

والسلطة العثمانية في الجزائر في العصر الحديث هي بالدرجة الأولى سلطة سياسية وإن توسعت دائرة نفوذها لتشمل مختلف مجالات الحياة.

_ والسلطة السياسية تعني التسلط والسيطرة والتحكم (المعجم الوسيط، وهي اسم مشتق من السلطان صاحب القدرة على التحكم في المجتمع في المجتمع وتوجيهه، بما يصدر عنه من قرارات وأحكام ملزمة للمجتمع الخاضع لسلطته.

يمارس الحاكم سلطته على الرعية مستخدما عدّة وسائل وأدوات وأجهزة يصطلح عليها بأجهزة نظام الحكم، وأهمها: القوة العسكرية، الجهاز الإداري والتنظيمات القانزنية.

والسلطة العثمانية في الجزائر في العصر الحديث(1518_1830م) يقصد بها سيطرة العثمانيين على مقاليد الحكم (السلطان) في الجزائر، كما استخدمت عدّة تنظيمات إدارية وقانونية لحكم المجتمع، كما عرفت عدّة فئات متنفذة في الحكم كالانكشارية، رياس البحر وحتى الكراغلة لكن بدرجة أقل من الأتراك العثمانيين الأصليين في حين يأتي دور الحضر(أهل المدن) وقبائل المخزن وشيوخ الزوايا في مرتبة أقل، أما قبائل الرعية فكانت في أسفل هرم السلطة.

_ نظام الحكم: رغم انخفاض عدد الأتراك العثمانيين في الجزائر، والّذين لم يتعدوا العشرة آلاف عسكري(1518_1830م)، إلاّ أنّهم تمكنوا من إقامة تنظيمات سياسية وإدارية وحتىّ عسكرية مكنتهم من حكم مساحات شاسعة في الجزائر، ولمدّة ثلاث قرون من الزمن.

2 _ جماعة الأتراك والكراغلة والحضر:

يمثل الأتراك والكراغلة و الحضر، الفئة المنتفذة في المدن، والأكثر تأثيراً في الحياة السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية والثقافية _في العهد العثماني_ وبالرغم من انخفاض نسبة هذه الفئة من الناحية العددية، إلاّ أنّها كانت الأكثر تأثيراً في توجيه المجتمع، لكن يجب أن نأخذ في الاعتبار أنّ درجة التأثير لدى هذه الفئات كانت متفاوتة.

2_ الأتراك والكراغلة:

يشكل الأتراك _رغم انخفاض نسبتهم_ الفئة المهيمنة على المجتمع، وهي تتربع على قمة الهرم الاجتماعي، تهيمن على أغلب الوظائف الادارية المهمة. (توفيق،دحماني،الضرائب في العهد العثماني.129)

ويمثل الانكشارية(الحيز) نواة فئة الأتراك العثمانيين، الّذين أرسلهم السلطان العثماني "سليم الأول" (1512_1520م) لدعم خير الدين بربروس بعد انضمام الجزائر للدولة العثمانية، وقد تزايد عددهم تدريجيا في الجزائر بعد ذلك(1518_1830م) وقد انظمت إلى الأتراك فئة "الأعلاج" وهم أوربيون اعتنقوا الإسلام واتخذوا من خدمة العثمانيين والاستقرار بالجزائر هدفا لهم، وقد امتهن الأعلاج النشاط البحري.

ومن العوامل التي ساهمت في الارتفاع التدريجي لعدد الأتراك، عمليات التجنيد التي كانت تجري في بلاد الأناضول خاصة في القرن 17م (1680_1795م) والتي كانت بدعم من السلطان العثماني.

لكن عدد الأتراك في الجزائر بدأ يتراجع منذ القرن 18م، وذلك بسبب تراجع النشاط الجهادي للأسطول الجزائري، وضعف حركة التجنيد، ومنع السلطان لها منذ 1816م، لكنه تراجع بعد ذلك، بيد أنّ عدد الأتراك كان في انخفاظ مستمر من سنة 1830م حيث تقلص عددهم إلى 4آلاف فرد، ولم يرحل الفرنسيون منهم سنة 1830م إلاّ 2500 جندي من الانكشارية (شويتام،ص63)

_ الكراغلة أو المولدين:

يحتل الكراغلة المرتبة الثانية بعد الأتراك العثمانيين والأعلاج، خاصة في المدن، كما كانوا يتمتعون بامتيازات مادية معتبرة، مقارنة بالسكان المحليين، حيث كان الكراغلة يعينون في مختلف المنصب والوظائف الادارية، ويعفون من الضرائب.

والكراغلة هم أبناء الأتراك من أمهات جزائريات، لكن النظام السياسي والاجتماعي لفئة الأتراك لم يسمح لهذه الفئة بالتمتع بنفس الامتيازات التي كان يحظى بها آباؤهم، لذا حدثت عدة اصطدامات بينهم وبين الأتراك (1626_1628، 1633)، لكنهم لم يتمكنوا من الحصول على امتيازات آبائهم، وبقوا دوما في مرتبة أقل من الناحية الاجتماعية. وبالمقابل حصلوا على حق التوظيف في الجهاز الاداري المركزي والمحلي، وكثير من الامتيازات المادية والاجتماعية، وتنامت أعدادهم محدودة حتى بلغوا 20ألفا، تمركزوا بالمدن الأساسية.

ومن بين هذه المدن "المدية" عاصمة بايلك التيطري، تلمسان، مستغانم، مازونة، قلعة بني راشد (معسكر)، وكانت أعدادهم محدودة في بايلك الشرق وحتى مدينة الجزائر، قبيل الاحتلال _لكنهم كانوا أغلبية في مدينة البليدة، القليعة، كما وجدوا في بايلك الشرق بقسنطينة، الخاميات في تبسة وعنابة وميلة.

الكراغلة في المفهوم التركي يقصد بهم" أبناء عبيد السلطان" وعبيد السلطان هم الانكشارية (خليفة،حماش، 131،)

نظر إليهم الانكشارية على أنهم خطر على سلطنتهم في الجزائر، فحاولوا إبعادهم عن الحكموالمناصب الحساسة، خاصة في القرن 16م، وحتى بداية القرن17م، لذا كثيرا ما كانت تسوء العلاقات بين الآباء والأبناء ويندفع هؤلاء إلى الاحتجاجات وربما لثورات، كما حدث في سنوات 1626، 1628، 1633، وقبل هذا سنة 1559م.(خلوفي، 35)

تطلع الكراغلة في هذه الثورات إلى تحسين أوضاعهم وحتى التخلص من سلطة الانكشارية ( ) استمر العداء بين الطرفين حتى منتصف القرن17م، حيث بدأ التحول في مواقف الكراغلة لصالح خدمة الانكشارية والارتباط بهم، فتمكنوا من دخول الجيش كمتطوعين.

ومن العوامل التي أسهمت في هذا التحول "الوباء" الذي حلّ بالانكشارية ما بين (1648_1650م)، وهلاك الكثير من الانكشارية، فمنحوا الكراغلة حق الانضمام إلى "الأوجاق" واستخدموهم في الغزوات منذ (1661_1665م) في عهد شعبان "آغا"، ذلك بوثيقة عهد الأمان، وربما يكون ضغط الخلافة بورقة "منع التجنيد" من الأناضول عاملا أساسيات في التوجيه لتجنيد الكراغلة.

استفاد الدايات في أواخر عهدهم من الكراغلة خاصة في عهد "علي خوجة" 1817م والذي استخدمهم في مواجهة الانكشارية، لكن رغم ذلك فإن الكراغلة لم يتمكنوا من الوصول إلى الحكم وبقوا على هامش السلطة وبالمقابل فإن علاقة الأهالي تدهورت مع الكراغلة بسبب هذا التحول وبرز ذلك جليا حتى في علاقة الأمير عبد القادر معهم في تلمسان، وزواتنية، (المؤسسات في الجزائر،93)،